

تركبها صحائف مطوية :

المساجد الجامعة

وأثرها في حياة المسلمين وزيارتهم الربنية

للأستاذ أحمد رمزي

—>>><<<—

أول مايو ١٩٣٣ بانفزة . طيف وفلسفة ثورة :

كانت دعوة غداء شائقة تلك التي أقامها الأستاذ الكبير بد بك السليحدار ، وهو قائم بأعمال المفوضية الملكية المصرية ، لشرف حمد الله صبحي بك ، وزير تركيا الفوض في نيا بمناسبة وجوده بالعاصمة التركية ، فجلس في صدر المائدة ، يمينه الوزير المحتفى به ، وأمامه السيدة زوجة روشن أشرف ، وعلى يمينها صاحب السمو الملكي الأمير زيد بن الحسين وزير ق الفوض بتركيا ، ثم تلا ذلك ترتيب مقاعد غيرهم من وين . وامتازت هذه الدعوة على غيرها من الدعوات ، بما فيها من الأحاديث الشائقة التي اهتم كل من الحاضرين بتتبعها صفاء إليها ، وحرصت من جانبي على تدوين بعضها .

وكان ذلك في يوم الاثنين الموافق أول مايو سنة ١٩٣٣ ، لكن اختيار هذا اليوم بالذات موضع تفكير وإنما جاء وليد دقة . وما أدراك ما أول مايو ، هو يوم عيد لطوائف الممال مختلف الأجناس والألوان ، علمنا بمقدمه من العلم الأحمر

والكتاب لطيف الحجم لا يتجاوز مائة وخمسين صفحة من ب اللغة الإنجليزية الصغيرة ، ولكنه واف بموضوعه متقن دانه واستدلالة ، ولا نعد من كتب التبشير التي تراد بها وة بين الأمم الأوربية وكفى ، فقد يحتاج المسلم لقراءة والتأمل سراميه ، ليعلم أن المذاهب المادية والدعوات السياسية التي خض عنها أنكار البشرين بالإصلاح في أوربية وأمريكا لا تحتوى أساسيد الإقناع ما هو أقوى وأجدر بالتأمل من هذه الأساسيد .

هباسي محمود الغفار

الذي كان يرفرف على بناء سفارة السوفيت ، إذ كانت حكومتهم أول دولة اعترفت رسمياً بهذا العيد وكانت بنائهم أمامنا .

أما وكالات الأنباء والإذاعة فأخذت تتحدث عن الاجتماعات والخطب والظاهرات التي سينفرد بها أول مايو . وأذكر أنني اعتكفت في صباح ذلك اليوم فراجعت بعض مؤلفات « كارل ماركس » وصاحبه « أنجل » وقلبت بين يدي صفحات مما كتبه رأس الثورة الروسية « لينين » وكنت مشغولاً به لدرجة أنني بحثت عن المنزل الذي كان يقيم به في مدينة زورنخ من مدن سويسرة الألمانية ، وتعرفت على المقعد الذي كان يجلس عليه في قاعة المطالعة بمكتبة جامعتها ، ولكثرة ما قرأت عنه وعن حياته لم تعد شخصيته غريبة عني ، وكان من تكرير ما رأيته من صورته في أوضاع مختلفة أن ثبتت صورته في مخيلتي ، فإذا وضعت ذلك بجانب الكتب التي قرأتها عنه بمختلف اللغات صدق قول الأديب العربي : « والبحر وإن لم أره ، فقد سمعت خبره » فهو أمامي كلما تلوت في كتبه ، برأسه الكبير وعينييه الصغيرتين الحادثين وفه الجبار وبروز عظمتي الوجنتين وهذا الإسم الذي يحمله (١) ، أجدهما دائماً مشاهد تؤكد لي أصله الأسيوي المفعول المنحدر من سلالة الفاتحين التتار الذين سادوا أنحاء روسيا مدة قرون طويلة ، وصبغوها بلونهم وتركوا فيها آثارهم ودماءهم . وليس في هذا ما ينقص من قدر الزعيم الروسي والمعلم الشيوعي ، إن لم يكن في ذلك ما يزيد من قدره وما يرفع من شأنه كبطل أسيوي عالمي .

قلت خلوت صباح ذلك اليوم لنفسي وأطلقت لها العنان تحلق كأ تشاء ، فأخذت أنتقل بالمطالعة من كتاب إلى كتاب غير مقيد بنظام أو قاعدة ، والوقت يمر سريعاً حتى وقع ناظري على جملة تقول : « هذا عصر تنظيم الجماعات وقيادة وتوجيه الحركات الشعبية الكبرى ، عصر عمل ونشاط وخلق ونصميم أكبر مظاهره سيطرة الإنسان بيديه القويتين على قوانين الطبيعة وإخضاعها لمشيئته وإرادته . تماهوا إلى الفلسفة المادية وارجعوا إلى النهج التاريخي لكي تتفتح أذهانكم لآفاق بعيدة . إننا لا نؤمن بالمطالعة إلا إذا احتجنا إليها لمحاربة الجحود والرجعية ولتخطيم الأسنام المزيفة . »

(١) أولو بانوف . والجزء الأول منه تترى .

إيمانه تظهره جبراً، وجبراً برعها علم:

وبينا أنا أقرأ هذا الكلام ، إذ قرع حاجب الفوضوية الباب ودعاني لاستقبال الضيوف مع أستاذنا الكبير ، فقمنا للترحيب بهم . وبعد برهة اجتمعوا ودخلنا حجرة المائدة ، وقد رتب أحسن ترتيب يدل على ذوق الداعي واهتمامه بالصغيرة والكبيرة من تنسيق واختيار وتدقيق في كل ما يقدمه لضيوفه . وما بدأت الخدمة حتى أخذ الحديث حمد الله سبحانه ضيف الشرف ، وهو محدث من الطبقة الأولى يتناوله بأسلوب عذب وصوت هادئ ويمبر عن آرائه بالفرنسية والتركية ، فتكلم عن أمور مختلفة ، وأشياء متعددة ، ولقت الأنظار حيناً أخذ يتحدث عن حياة المسلمين في رومانيا ، فأحاط بما هم عليه في وقته وما كانوا عليه في الماضي وما تبعاً لهم به في المستقبل ، وأشار إلى اللغة المستعملة في رومانيا وكيف تأثرت بالألفاظ التركية التي امتزجت بها ، وكثير من هذه الكلمات عربي الأصل ، دخلت وأصبحت من لغة يتكلمها الملايين من الناس ، ثم عدّد مساجدهم وعلماءهم وما هم عليه من التمسك بدين الإسلام وما يلقونه من حرية العقيدة والتسامح في القيام بشعائرهم الدينية ، بغير حرج ولا ضغط عليهم .

ثم رأيت انتقل فجأة لموضوع شائك وعمر المسلك لا يجرؤ أحد من الأتراك أن يخوض فيه وقتئذ ، فقال : « إن الدين لازم لكل أمة وفي كل عصر » ثم استشهد بعقيدة الشعب اليوناني الحديث ، فقال : « إن هذا الشعب الذي يجاورنا وتجاوره وبماصرنا ، يستمد إلهامه ومثله العليا من ثلاثة منابع : تاريخه القديم ، وعصر بيزنطة والدين الأرثوذكسي . فهذه دعائم ثلاث لنفسكبره ولثله العليا وحياته » .

وهنا التفت السيدة زوجة دوشين أشرف بك ، وكان زوجها نائباً بالجلس الكبير ثم وزيراً مفوضاً وسفيراً ، وهو كاتب من ألمع كتاب الأتراك وأدبائهم ، وسبق أن شغل منصب الأمين العام لرئاسة الجمهورية في أول عهد النازي كمال أتاتورك ، فأبدت الكثير من الشك في أقوال الوزير التركي وكان مما قالته : « هناك أشياء أخرى غير الدين ومبادئه ، تستلهمها الأمم في حياتها

وجهادها ونهضتها ، ثم ما هو الدين ؟ أليس هو المثل الأعلى الذي يكونه الفرد منا لنفسه » ، وعبرت عن المثل الأعلى باللفظ التركي المستحدث .

أما حمد الله بك فاستمر في حديثه لا يبالي بالرد على ما يوج إلى كلامه من اعتراض ، وكان صوته يمبر عن إيمانه العميق وشموه بالألم والحسرة ، فخرجت كلماته وهي تلهب الصدور ، ولذلك بقيت عالقة بأذني ، قال : « نحن معاشر أهل الإسلام في أشد الحاجة إلى ما اسميه تربية المسجد ، وأقول بكل أسف إن المسجد لا يلعب في حياتنا الدور الذي تقوم به الكنيسة في حياة المسيحيين أو المبد في حياة الإسرائيليين ، ونحن أحوج ما نكون إلى رجل الدين الذي يوفق بملء وروحه وشخصيته وجرأته لأن يحيط المسجد أو الجامع بهالة من القدسية والاحترام ، وأن يتخذ مركزاً لعمله الروحي والاجتماعي ، الرجل الذي يمكن أن يطمئن الناس إليه في تربية النشء ، وتثقيفهم وتلقينهم قواعد الدين الصحيح وأسس وفوائده . إن المساجديين لله وبيوت العبادة وبيوت المسلمين فيجب أن تنعج أنظارهم إليها وأن تجمعهم وقت الصلاة ووع أعيادهم ومناسباتهم المفرحة والمحنة ، وأرى أن تربية المسجد عنصر أساسي من عناصر نهضة المسلمين » .

وأخذ يشرح هذه الناحية بوجهة نظر جديدة بكل اعتبار وتقدير ، وبؤيدها بمنطق الرجل المسلم الشاعر بأهمية العمل الروحي ، والمؤمن إيماناً لا يتزعزع بقوة المبادئ والدوافع التي قامت عليها الرسالة المحمدية .

وكنا نشعر وقتئذ بما بين تركيا وروسيا السوفيتية من علائق الود والصفاء والتحالف ، وكنا نعرف أشياء عن محاربا البلاشفة للعقائد ولنظام الأسرة ، وكان الأتراك يقلدون الروس في أشياء ، ولكن حمد الله بك صرح بما يعتقد أنه الصواب بقوله « لا يمكن لمجتمع بشري يحترم نفسه أن يحارب الأسرة ، إذ هي الرابطة الأساسية الأولى التي تصل بين الفرد والمجتمع وبين الطبيعة والبشرية وبين المادة والروح » .

كنا نستمع إليه جيماً ونحن نسلم بأن هذه الكلمات تخرج من وحي إيمانه وعقيدته فهي ليست من قبيل المجاملة ، بل نتيجة

الأتراك ، ونفخت فيهم روحاً جديدة ، ومهدت الطريق لثورة مصطفى كمال التي قادتهم إلى حرب الاستقلال ، فهو رجل من صميم الشعب ، خرج من صفوفه وأمضى السنوات يمسك الشعب ويلقنه ويقوده ، ولما اختلفت وجهة النظر بينه وبين الفاضل مسلم لرئيس الجمهورية مقاليد الحركة ، التي أمضى عشرات السنين في بنائها وقنع بمنصب دبلوماسي خارج بلاده ، ولكنه يحسن إلى الشعب التركي ويتحدث بفضائل الإسلام ويأبى أن يفرق بين الترك والإسلام ، ويجاهر بما يعتقد ولا يخشى إلا الله ، وتلك منزلة لا يرق إليها كل الناس كما نعلم ونحس لدينا .

كان ذلك في عام ١٩٣٣ وما نحن في عام ١٩٤٦ ، وقد مضت السنوات وتغيرت الأيام ، وتبدلت الأوضاع ، وبينما أكتب مقالا للرسالة عن مساجد القسطنطين ، وجدت مجلداً من مذكراتي اليومية ، فإذا أنا أمام حديث حمد الله بك عن تربية المسجد . فرأيت أن أنقله كما هو وأن أعلق عليه بما دار في خلدي طول السنين الماضية ، وأجمله تنمة لحديث القسطنطين ودعمتها الغالية على مساجدها وآثارها .

« يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يمسك من الناس » (المائدة)
بهذه الآية الكريمة خاطب الله رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، وأدى النبي رسالته ، فهل اتبع المؤمنون سنة رسولهم ، وقاموا بتبليغ الأمانة التي حملوها في هذا المصر الذي نعيش فيه ؟ إن الرسالة المحمدية للعالم قائمة ، فإذا أدّاها أصحابها ، نشروا بين الخلق تعاليم ومبادئ ودوافع تنفخ فيهم روحاً جديدة ، وتكون كشملة لا يلبث ضيائها أن يزيد يوماً بعد يوم حتى تملأ أجزاء الأرض فتؤثر في حركة العالم وسيره وتطوره ، وفي تكاتف الأمم وتساندها وإخراجها من الظلمات إلى النور .

هذا هو إيمان كل مسلم دخل في زمرة طائفة المؤمنين ، وهذه آماله نعيم عنها ، ونحن على ثقة منها ؛ ولكن كيف الوصول إلى تحقيق ذلك ؟

أحمد رمزي

(البقية في العدد القادم)

الفصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان

يرطويل ورأى ناصح . وكان يتحدث عن الشعب التركي حديثاً يفيض قلبه بحبة هذا الشعب الإسلامي الكبير ، كما يتحدث عن أعز بنيه أو أحب شيء لديه . وكان وطنياً بغير تعصب ، يأمر مع سعة صدر . وأذكر أنه ختم كلامه بقوله : « ليس أصعب السياسي أو التصديق لقيادة نهضة أمة وهي في غمرات تحررها لها ، من أن يلقنها كيف توفق بين الشعور بالوطنية حيحة ومراميتها وأهدافها المشروعة وما يلابسها من حماسة ، وبين الإيمان بحبة الأمم الأخرى والأخذ بالتساهل والشعور بأهمية العمل في حقل التعاون الدولي وما يتطلبه نظام وتساند » .

إن قليلين من رجال السياسة الذين استبقوا حوادث الزمن زوا هذه النظرة ، وأن هذا المبدأ من المبادئ التي تحاول أن يها الأمم بعد الحرب العالمية التي انتهت أخيراً ، ولكنني أنقلها لي من مذكراتي عام ١٩٣٣ .

هو الرجل ؟

لي هنا انتهى حديثه ، وانفض بعد ذلك جمع أناس من أهل الفضل ، كان أستاذنا الكبير توحيد بك السلحدار يعرفهم في دار المفوضية ، حينما مثل مصر تمثيلاً عالياً ورفع بانها ، وجعلها موضع احترام الأمة التركية وحكومة الجمهورية ، ن أول ممثل لدولة أجنبية جاء إليه رئيس الدولة ، وعُد ذلك لأتراك ورجال السلك الأوروبي وبين من يفهم من الناس ، بر توفيق حصل عليه ممثل دبلوماسي لمصر منذ أنشئت بت سياسية بين المملكة المصرية والجمهورية التركية .

ونعجب من كيف يتحدث حمد الله صبحي بهذه الشجاعة ب يجاهر بأراء لا تتفق مع الرأي السائد لدى السلطات العليا يا ، ولكن الرجل القوي المخلص لمبادئه لا يبالي بأن يجهر بل وبما يشمر ، وكان حمد الله بك عالماً فاضلاً ، والعلم قوة دافعة تم على صاحبها شجاعة وجراءة وثباتاً ، وكان تاريخه نقياً صافياً ، خدم بلاده أجل الخدم ، يوم كان زعيماً لحركة « التوروك غي » وهي التي أيقظت غريزة الشعور القومي لدى شباب